﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾ [المرسلات: 35 - 37]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

انقِطاعُ العُذْرِ بعدَ البيانِ الوافي

لمّا أبانَ اللهُ سبحانه عن هوانِهم في دارِ العقاب بالنّارِ والشَّررِ واللهيب؛ أتبعَ ذلك بما هو أشدُّ رهبةً وأعظمُ مصيبةً، وهو خرسُ الألسنةِ بعد طول التَّكذيب، وانقطاعُ العذر بعد تكرار التَّنديد؛ فجاءت الآياتُ تُكمِلُ صورةَ الخزي في المشهَدِ العظيم؛ إذ لا إذنَ يُمنح، ولا نطقَ ينفع، ولا شيء يشفَعُ، ولا عذرَ يُسمَع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾: أصل (عذر) من العَذِرَةِ وهو الشَّيء النَّجس، ومنه سمّي القُلْفَةُ: العُذْرَةُ، تقول: عَذَرْتُ الصّبيَّ؛ إذا طهّرتَه، وأزلتَ عُذْرَتَهُ، وكذا عَذَرْتُ فلانًا، أي: أزلتُ نجاسةَ ذَنْبِه بالعَفْوِ عنه[1]، والعُذْرُ: تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبَهُ، ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ[2]، والمُعْذِرُ: مَن يَرى أنّ له عُذْرًا، ولا عُذْرَ له، والعَرب تَقول: أعذر فلان، أي: كانَ مِنْهُ ما يُعذَر بهِ، واعتذر بمعنى أعذر، أي: صار ذا عُذْرٍ[3]، والمُعْتَذِر يُقال فيمن له عُذْرٌ، وفيمَن لا عُذْرَ له[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾، أي: لا يكون لَهُم إذْنٌ واعْتِذارٌ[5] بطَلَبِ العَفْوِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عذر).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح: (عذر).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (عذر).
(4) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (عذر).
(5) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 587.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخَتْمُ على أفواه المكذِّبين سببُهُ إقامَةُ الحجَّة عليهم يومَ الدّين

يخبرنا الله ﷻ في هذا السّياق القرآنيِّ المبارك عن يوم القيامَةِ وما فيه من الأهوالِ والمَواقِفِ الصَّعبة التي تتجلَّى في الخَتْمِ على أفواه هؤلاء المكذِّبين بنِعَمِ الله تَعالى وفضله وأياديه، وفي عدَم السَّماح لهم بتقديم المعذرة في هذا اليوم؛ لإقامة الحجَّة ووقوع القولِ عليهم؛ بسببِ ظُلْمِهم وكفرهم بآيات الله سُبحانَهُ، وفي التَّهديد كذلك لَهُم بالهلاك والعذابِ الشَّديد؛ لأنَّهم كفروا بالله تَعالى ورسوله ﷺ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصْلِ الآيات عن سابِقَتِها:

في يوم القيامَةِ عذابٌ شديدٌ، وسيعلَمُ المكذِّبون فيه صِدْقَ الوَعيدِ

هذه الآيات متَّصلة بالسِّياق ومعقِّبة على ما سبقَها، كما هو ظاهر، والوصف السّابق قويٌّ مرعِب، فجهنَّم التي يُساق المكذِّبون إليها، التي كانوا يكذِّبونها، ترمي بشرر عظيم الحَجْم والطّول، وقد ضُرِب عليها رواقٌ ذو ثلاثِ شُعَب يظنُّه الرّائي ظلًّا واقيًا، ولكنَّه لا يلبث أن يَعْرِف أنَّه لا يصلح للاستظلال، ولا يقي مِن اللهب، وما يلي ذلك يحكي ما سوفَ تكون عليه حالُ المكذِّبين مِن سوءٍ وحرَجٍ في هذا اليوم العصيب، فهُم لا يستطيعون أن يقولوا شيئًا، ولا يُسمَحُ لَهُم بالاعتذار عمّا بدا مِنْهُم[2].

فتكون هذه الآيةُ مُستأنَفَةً مَسوقَةً لبَيانِ الحالِ في ذلك اليومِ[3].

نُكْتَةُ التَّعبير باسْمِ الإشارة للقَريبِ ﴿هَذَا﴾:

الهاء في قوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّنبيه، و(ذا)

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 307، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 327 - 328.
(2) دروزة، التَّفسير الحديث: 2/ 214.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 343.

اسمُ إشارةٍ يُرادُ به يوم القيامة[1]، وله هاهنا تأويلانِ سائغان: "فإن كانت الإشارة على ظاهرها؛ كان المشار إليه هو اليوم الحاضر، وهو يومُ الفَصلِ، فتكون الجملة مِن تمام ما يُقال لهم في ذلك اليوم بعدَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وموقعُ الجُمْلَةِ على هذا التَّأويل موقِع تكريرِ التَّوبيخ الذي أفاده قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وهو مِن جملة ما يُقال لهم في ذلك اليومِ، واسمُ الإشارة مستعمَلٌ في حقيقتهِ للقَريب.

يـــومُ عـــذاب الـكـافـريـن المكذِّبين قريبٌ

وإن كانت الإشارةُ إلى المذكور في اللَّفظ، وهو يومُ الفصْلِ المُتحدَّث عنه بأنَّ فيه الويلَ للمكذِّبين؛ كان هذا الكلام موجَّهًا إلى الذين خوطِبوا بالقرآن كلِّهم؛ إنذارًا للمشركين منهم وإنعامًا على المؤمنين، فكانت ضمائرُ الغَيبة جاريةً على أصْلِها، وكانت عائدةً على المُكذِّبين مِن قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وتكون الجملة معترِضةً بينَ جملة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾، واسمُ الإشارة الذي هو إشارَةٌ إلى القريب مستعمَل في مشارٍ إليه بعيدٍ؛ باعتبار قُرْبِ الحديث عنه على ضربٍ مِن المجازِ أو التَّسامح"[2].

ويُضاف إلى ما سبق ما في التَّعبير باسْمِ الإشارة مِن تمييزِ المشار إليه أكملَ تمييز، وفيه ردٌّ على المكذِّبين الذين أنكروه، مع ما في الإشارة مِن تعظيم المشار إليه، وهذا التَّعظيم مستفاد مِن السِّياق.

دلالَةُ التَّعبير بالاسميَّةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾:

قوله: ﴿يَوْمُ﴾ مرفوعٌ على أنَّه خبر ﴿هَٰذَا﴾[3]، والجملة الاسميَّةُ تُفيدُ بأصْلِ وضعِها ثبوتَ شيء لآخَرَ دون نَظَرٍ إلى تجدُّدٍ ولا

عـذابُ المكذِّبين فظيعٌ لا يُتَصوَّر، وحـالُـهُـم يـومَ القيامَةِ ثابتَةٌ لا تتغيَّر

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الرِّيُّ الجامع: 12/ 238.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 439.
(3) المنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 316.

استمرارٍ[1]، غير أنَّها قد تخرج عن هذا الأصل، وتفيد الدَّوامَ والاستمرارَ بحسَبِ القرائن، إذا لم يَكُن في خَبَرِها فِعْلٌ مُضارِعٌ، وذلك بأنْ يكونَ الحديثُ في مقام المدح، أو في معرض الذَّمّ[2].

ومن الذَّمّ قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، فدلَّ سياق الكلام على ثُبوت حال المكذّبين بعدَم النُّطق تحقيرًا لهم وتعذيبًا ودوام ذلك واستمراره، ويؤكّد هذا وُجودُ الفِعْلِ المُضارع المنفيّ في صفةِ اليوم المُشار إليه بـ ﴿هَذَا﴾.

نَوْعُ الإضافَةِ ودلالَتُها في ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾:

لا تَنْطِقُ ألسِنَةُ المكذّبين مِن شدَّة العَذاب يومَ الدِّين

تُرِكَ التَّنوين في لفظِ ﴿يَوْمُ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأجْلِ الإضافة[3]، فـ ﴿يَوْمُ﴾ مضافٌ إلى ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾[4]، "أي: هو يومٌ يُعرَفُ بمَدْلولِ هذه الجُمْلَة"[5].

فالإضافَةُ محضَةٌ (معنويَّة) تفيدُ تخصيصَ المضافِ بالمُضاف إليه[6]، بغَرَضِ تعظيمِ المُضاف، أي: إنَّ هذا اليومَ عظيمٌ شديدٌ على المكذّبين، لا يَنْطِقون فيه من الخوف والوجل الشَّديد[7].

وقد "استدلَّ بعض أهل النَّظر على أنَّه يراد به بعضُ أوقات اليوم دون بعض؛ بإضافة اليوم إلى الفِعْلِ"[8]، قائلًا: "العربُ لا تُضيف اليوم إلى فعَلَ يَفْعَل، إلّا إذا أرادت السّاعة مِن اليوم والوقتَ منه، وذلك كقولهم: آتيك يومَ يَقْدَمُ فلانٌ، وأتيتُك يوم زارَكَ أخوك،

(1) القزوينيُّ، الإيضاح: 2/ 133، والهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 66، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 48.

(2) الهاشميُّ، جواهر البلاغة، ص: 67، والمراغيُّ، علوم البلاغة، ص: 56، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 48.

(3) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 563.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 420.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 440.

(6) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 73.

(7) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 905.

(8) مكّيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 12/ 7975.

فمعلومٌ أنَّ معنى ذلك: أتيتُك ساعةَ زارَك، أو آتيك ساعَةَ يَقْدَمُ، وأنَّه لم يكُن إتيانُه إيّاه اليومَ كلَّه؛ لأنَّ ذلك لو كان أخَذَ اليومَ كلَّه؛ لم يُضَف اليومُ إلى فعَلَ ويَفْعَل، ولكنْ فعَلَ ذلك؛ إذْ كان اليومُ بمَعْنى: (إذْ) و(إذا) اللَّتين يَطْلُبان الأفعالَ دون الأسماءِ"[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بنَفْيِ النُّطق دونَ الكلام:

الفرق بين النُّطق والكلام: أنَّ الكلام هو ما يُتحدَّثُ به قليلًا كان أو كثيرًا، وأمّا النُّطق؛ فهو إدارة اللِّسان في الفَم بالكلام[2].

لا تتحرَّكُ ألسِنَتُهم التي لاكوها بالتَّكذيب؛ إذ تعقدُها شدَّةُ التَّعذيب

إضافةً إلى أنَّ النُّطق قد يكون لِما لا نَفْهَمُهُ نحنُ البشَر، كما قال اللّه تعالى في قصَّة سليمان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النَّمل: 16][3]، وهذا بخلافِ مَعْنى الكلام الذي يَدلُّ على نُطقٍ مُفهِم، ويُتَّسع في دلالةِ الكلمة، فتُسمَّى اللَّفظة الواحدةُ المُفهِمة كَلمةً، والقصَّةُ كلمةً، والقصيدةُ بطولها كَلمةً[4]، وعند كثير مِن المتكلِّمين لا يقع الكلام إلّا على الجملة المركَّبة المفيدة[5].

وممّا سبَق يتبيَّن سرُّ إيثار التَّعبير بنفي النُّطق دون نفي الكلام في هذه الآية الكريمة التي تَصِفُ حال المكذِّبين الضّالّين يوم القيامة، فقد نفَت الآيةُ عَنهُم مُطْلَقَ تحرُّك اللِّسان في الفَم مِن هول ما يَلقَوْن، وكأنَّ ألسنتَهُم قد انعقدت عن الكلام بل النُّطق، ولو بغير المُفهِم، فهُم "لا ينطقون فيه ببِنْتِ شفَةٍ مِن شدَّة الحيرة والدَّهشة"[6]، فلم يبق إلّا الصُّراخ، "فلا تتحرَّك ألسنتُهم، كما كانت تتشدَّق في الدُّنيا بالزّور"[7]، إضافةً إلى أنَّ لفظَ ﴿يَنطِقُونَ﴾ فيه

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 142.
(2) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 541 - 542.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نطق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (كلم).
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 179.
(7) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1405.

إشارَةٌ إلى احتِقارِهم؛ إذِ المَعْنى: أنَّ هؤلاءِ الكفّار المكذّبين ليسوا مِن جِنْس النّاطِقينَ ذوي العُقول[1].

"وقد يكون المراد أنَّهم لا يَنْطِقون بما يُفيد، فكأنَّهم لا يَنْطِقون، وتقول العرَبُ لمَن ذَكَرَ ما لا يُفيد: ما قلتَ شيئًا"[2]، فصار "نُطْقُهُم بالأعذار الكاذبَةِ كلا نطقٍ في عدَمِ الدَّفع والنَّفع"[3].

بلاغَةُ الالتفاتِ مِن الخطابِ في ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ إلى الغَيْبَةِ في ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾:

في الانتقال مِن خطاب هؤلاء الكافرين المكذّبين بقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ إلى إجراء ضمائر الغيبَةِ عليهم التفاتٌ بديعٌ؛ إذ إنَّهم أوَّلًا خوطِبوا خطابَ إهانَةٍ وتحقيرٍ بالأمر المُذِلّ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾؛ ليشهدوا بأنفُسِهم حقيقةَ ما كان الرَّسولُ ﷺ يخبِرُهُم به، ويُحذّرهم منه، وهُم مصرّون على تَكْذيبِه، فيَنْطَلِقون إليهِ راغِمين تَسوقُهُم الملائكة، وتَنْبُذُهُم في الحُطمةِ الزَّبانيةُ، فلمّا صاروا في دركاتِ الجحيم؛ حسُن ألّا يُلتَفت إليهم، بل عَنْهُم؛ زيادةً في تحقيرهم.

بالآثام تحمَّلوا، فأُهينوا، وأُهمِلوا

وممّا يزيد هذا الالتفاتَ حُسنًا "أنَّهم قد استحقّوا الإعراضَ عنهم بعد إهانتهم بخطاب ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾"[4]، فجاء قولُه تعالى بعدَه بضميرِ الغائب: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ على وجهِ الإهمال[5].

دلالَةُ عَطْفِ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ على ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾، وبلاغةُ السَّجعِ في الفاصِلَتَيْنِ:

في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ اتّصال في المعنى بين الجملةِ الأولى والثّانية، "فَعَطْفُ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ على جملة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ يعني أنَّه لا يُؤْذَن لهم إذنٌ

بأيِّ عُذْرٍ يَعْتَذِرون بعد ما كَفروا بالحقِّ المبين، وتولَّوا عنه مُعْرِضين

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (نطق).
(2) المراغيُّ، تفسير المراغي: 29/ 187.
(3) النَّخجوانيُّ، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 475.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 439.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 240.

يتفرَّع عليه اعْتِذارُهُم، أي: لا يُؤذَن لهم في الاعتذار، فالاعتذار هو المقصودُ بالنَّفي، وجُعِل نفيُ الإذنِ لهم توطئَةً لنَفْيِ اعتذارهم"[1]، أي: لا يُؤْذَن لهم بكلامٍ يُلْقون فيه بأعذارٍ يَعْتَذِرون بها عن جِناياتِهم في الحياة الدُّنيا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الرّوم: 57]، فالوَيْلُ لهؤلاء المكذّبين، ولكلِّ مكذِّب بيَوْمِ الدِّين[2]، وممّا حسَّن الوصلَ بين الجُملتين اتِّفاقُهما في الخبريَّة، وفي التَّعبير بالمضارعِ المنفيّ، وفي دلالَتِهما على نَفْيِ التَّكلُّم بالاعتذار وبغيره عن الكافرين المكذّبين يوم القيامة.

وتوافق الفواصل في الحرف الأخير مثل: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الآيات، مِنْ بابِ السَّجْعِ، وهو مِن المحسِّنات البديعيَّة، وتدلُّ كلُّ واحدةٍ مِن السَّجعتَيْن على معنًى يُغايِرُ ما دلَّت عليه الأُخْرى.

دلالَةُ التَّعبير بالمُضارِعِ المَنْفيّ المَبْنيّ للمَفْعولِ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾:

بناءُ الفِعْلِ للمَفْعولِ في ﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ للعِلْم بفاعله، وهو مالكُ يوم الدِّين ﷻ، فهؤلاء الكافرون لا يَقْدِرونَ على شيءٍ إلّا بإذن الله تعالى.

المكذِّبون في الآخِرَةِ في عذابٍ فظيعٍ، وليسَ لَهُم نَصيرٌ ولا شَفيعٌ

وفي عدَمِ ذِكْرِ الفاعل أيضًا دلالَةٌ على عدَمِ وُجودِ ناصِرٍ لَهُم ولا شفيع، أو حتَّى فرَجٍ يأتيهم مِن دون الله ﷻ[3].

واختيارُ صيغَةِ المُضارع المنفيّ للدَّلالة على استمرارِ المَعْنى، فهؤلاء الكافرون مستمرٌّ عدمُ الإذنِ لَهُم في الاعتذار؛ كُلّما همّوا بذلك، أو حاوَلوه، وهذا الحالُ يوجِعُهُم، ويعذّبهم[4]، فهم "لا يَقْدِرون على الكلام، ولا يُؤْذَن لهم فيه؛ ليَعْتَذِروا، بل قد قامت عليهم الحُجَّة: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النَّمل: 85]"[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 440.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1405.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 180.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 180.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 300.

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾:

اختُصّوا بحِرمانِ الإذن بالاعْتِذار، بَعْدَما تقدَّم القرآنُ لَهُم بالإنذارِ

الأصل في معنى (اللّام) أنَّها موضوعة للدَّلالة على الاختِصاص[1]، وهي هنا بهذا المعنى، أي: لا يؤذَن لهم خاصَّة، ممّا يدلُّ على شدَّة جُرْمِهم وإثْمِهم وعِظَم خَطيئَتِهم، فلمّا سَدّوا آذانهم عن سماع الحقّ، وصرفوا ألسنتهم عن قول الصِّدق؛ حُرِموا يوم القيامة من مجرَّد الإذْنِ بالكلام؛ ليقدِّموا أعذارَهُم، فكان جزاءً وفاقًا، وإنَّما لَم يُؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنَّ الله سُبْحانَهُ أزاحَ الاعتذار في الدُّنيا بتَقديم الإنذار، بدليلِ قوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾؛ ولهذا قال في آخِر هذا الإخبار: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[2].

مَعْنى (الفاء) ودلالَتُها في ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾:

أيُّ عُـذْرٍ لِمَن أعـرَضَ عَـن مولاهُ، وجحَدَهُ، وكَـفَـر أيـاديَـه ونِعَمَه؟

الفاء معناها التَّعقيبُ بلا مُهْلَةٍ، مع إفادة التَّرتيب، أي: إنَّها تُفيدُ الاتِّصالَ[3]، "وعطفُ ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ على ﴿يُؤْذَنُ﴾ يدلُّ على نَفْيِ الإذْنِ والاعتذارِ عقيبَهُ مُطْلقًا، وهو ليس جوابًا، ولو جَعَلَهُ جوابًا؛ لدلَّ على أنَّ عدَمَ اعتذارِهم لعدَمِ الإذن، فأوْهَم ذلك أنَّ لهم عذرًا لكنْ لا يُؤذن لهم فيه"[4]، فهو "عطفٌ عَلى ﴿يُؤْذَنُ﴾ مُنْخَرِطٌ في سِلْكِ النَّفي"[5].

فالمعنى: لا يكونُ لَهُم إذْنٌ واعتذارٌ، "أي: لا يُؤذَن لهم في الاعتذار، فالاعتذار هو المقصود بالنَّفي، وجُعِلَ نفيُ الإذن لهم توطئةً لنَفْيِ اعتِذارِهم؛ ولذلك جاء ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ مرفوعًا، ولم يَجِئ منصوبًا على جواب النَّفي؛ إذْ ليس المقصودُ نفيَ الإذنِ وترتُّبَ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.
(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 426.
(3) المراديُّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 61.
(4) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 5/ 277، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 180.
(5) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 587، والمنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 317، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 288 - 289.

نفيِ اعتذارهم على نفي الإذن لهم؛ إذْ لا محصولَ لذلك؛ فلذلك لم يكُن نصب ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ مساويًا للرَّفع، بل ولا جائزًا، بخلاف نحو قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [فاطر: 36]، فإنَّ نفْيَ القَضاءِ عليهم، وهُم في العذاب مقصودٌ لذاته؛ لأنَّه استمرار في عذابهم، ثمَّ أجيب بأنَّه لو قُضي عليهم؛ لَماتوا؛ أي: فقَدوا الإحساسَ، فمعنى الجوابيَّةِ هُنالك ممّا يُقصَدُ.

ولذا فلا حاجةَ هُنا إلى ما ادَّعاه أبو البقاءِ أنَّ ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ استئنافٌ؛ تقديره: فهُم يعتذرون، ولا إلى ما قاله ابنُ عطيَّة تبعًا للطَّبريّ: إنه يُنصب لأجلِ تَشابُهِ رؤوس الآياتِ، وبعدُ؛ فإنَّ مناط النَّصب في جواب النَّفي قصْدُ المتكلِّم جعْلَ الفعلِ جوابًا للنَّفي، لا مجرَّد وجود فعلٍ مضارع بعد فعلٍ منفيٍّ"[1].

فالفاء هاهنا في ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ للنَّسق فقط، ولا يُفيد كونَهُ جزاءً ألبتَّة[2].

ثمَّ إنَّ فيه فائدةً أخرى، وهي حصولُ الموافقَةِ في رؤوس الآيات؛ لأنَّ الآياتِ بالواو والنّون، ولو قيل: (فيعتذروا) لَم تتوافق الآيات، "ألا ترى أنَّه قال في سورةِ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ [القمر: 6]؛ فثَقَّل لأنَّ آياتها مثقَّلة[3]، وقال في موضع آخر: ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ [الطَّلاق: 8]، وأجمع القُرّاءُ على تثقيل الأوَّلِ، وتخفيف الثّاني؛ ليوافق كلٌّ منهما ما قبله"[4].

دلالَةُ التَّعبير بالمُضارِعِ ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾:

للمُضارع هنا دلالةٌ على التَّجدُّدِ والاستمرار واستحضارِ الصّورة، فهؤلاء المكذّبون الذين لا يَنْفَعُهُم اعتذارُهم في الآخرة لا شكَّ أنَّهم

يومَ القيامَةِ لا يُقبَل مِن الكافرين اعتذارٌ، وليس لَهُم في الآخِرَةِ إلّا النّار

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 440، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 682.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 226.
(3) المرادُ بالتَّثقيل: التَّحريكُ، ويُقابِلُهُ التَّخفيف مرادًا به الإسكانُ.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 778 - 779.

يُحاوِلون جاهِدين أن يَنْجوا مِن هذا العذاب العظيم، فيظلّون يَهُمّون بالاعتذار زمنًا طويلًا مستمرّين على ذلك مع استمرار مَنْعِهم.

وقد أوثر لفظُ الاعتذار دونَ غيرِه؛ لمعناه المناسبِ لحالِ هؤلاء، "يُقال: اعْتَذَرْتُ إلى فلانٍ؛ إذا أتيت له بعُذْرٍ يترتَّب عليه مَحْوُ الإساءة"[1]، وهذا هو المَعْنى في قوله: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾، فإساءَتُهُم لا تُمحَى، وعذابُهم لا يُخَفَّف.

نُكتة حَذْفِ متعلّق النُّطْقِ والاعتذار في ﴿لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾:

حُذِفَت المتعلِّقاتُ هنا لقصد التَّعميم والاختصارِ مع رعاية الفاصلةِ، أمّا التَّعميم؛ فالكافرون في هذا اليوم ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ بمنطقٍ ينفَعُهُم، ولا يعتَذِرون بعُذْرٍ يدفَعُ عنهم[2]، ثمَّ يَحِقُّ عليهم القولُ، ويُطبَق عليهم العذاب، وتوصَد عليهم أبواب جهنَّم، ويقول لهم الله جلَّ وعزَّ وتعالى وتقدَّس: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، فلا يَنْطِقونَ بشَيْءٍ، ولا يَعْتَذِرون بشيءٍ.

شـدَّة الأهـوال أسـكـتـت الـكـافـريـن الجُهّال

وأمّا مراعاة الفواصلِ؛ "فالعرب تستحبُّ وفاقَ الفَواصل، كما تستحبُّ وفاقَ القَوافي، والقرآنُ نزل على ما تستحبُّ العربُ مِن موافقة المقاطِع"[3].

درءُ التَّعارضِ بينَ هذه الآية وبين الآيات التي جاء فيها ما يدلُّ على اعتذارِهم:

قال الله تعالى هُنا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، وهناك آيات أخرى تدلُّ على أنَّهم يَنْطِقون، ويعتذرون، كقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النَّحل: 28]، وقوله: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38]، إلى غير ذلك مِن الآيات، فيَبْدو ثَمَّ تَعارُضٌ ظاهِرٌ بين الآيات، وليس هذا واقعًا، وخلاصةُ الجواب عن هذا كلِّه مِن أوجهٍ[4]:

في يـوم الأهـوالِ تتعدَّد الأحوالُ، بين إذْنٍ بالكلامِ وحِـرْمـانٍ مِـن المقالِ

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 240 - 241.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 211.
(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 103 - 104.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 300، والمنتجب الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 6/ 317، والشِّنقيطيُّ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 335 - 336.

الأوَّل: أنَّ القيامة مواطِنُ، ففي بعضِها يَنْطِقون وفي بعضها لا ينطقون، وقد ورد التَّنزيل بهما، فعَرَصات القيامة حالاتٌ، والرَّبُّ تعالى يخبرُ عن هذه الحالِ تارَةً، وعن تلكَ الحالِ تارةً؛ ليدلَّ على شدَّةِ الأهوال والزَّلازل يومئذٍ؛ ولهذا يقولُ بَعْدَ كلِّ فصْلٍ مِن هذا الكلام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

والثّاني: أنَّهم لا ينطقون بما لهم فيه فائدة، وما لا فائدة فيه كالعَدَم، فالعرَبُ تقول لمَن تكلَّم، ولم يأتِ بفائدة: ما قلتَ شيئًا، فنفوا عنه القولَ على الرُّغم مِنْ أنَّه تكلَّمَ، وأسمعَ.

والثّالث: أنَّهم بعد أن يقول اللّه تَعالى لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: 108]، يَنْقَطِعُ نُطْقُهُم، ولم يَبْقَ إلّا الزَّفير والشَّهيق، قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النّمل: 85]، وهذا الوجهُ الثّالثُ راجِعٌ للوجه الأوَّل، أي: إنَّهم "تكلَّموا، واختصَموا، ثمَّ خُتِم على أفواهِهم، فتكلَّمت أيديهم وأرجلُهم، فحينئذٍ ﴿لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾"[1]، أي: إنَّ في القيامَةِ مواطِنَ، فهُم قد ينطقون في موطِنٍ، ولا ينطقون في موطن آخَر[2].

"والهدف العامُّ هو وصفُ هَوْلِ مصير الكُفّار وشدَّة موقِفِهم يومَ القيامَةِ؛ لإثارة الرُّعب والفزع في نُفوسِهم، وحَمْلِهم على الارعِواء والازدجار"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النُّطق والتَّكلُّم:

الكلامُ في اللُّغة يُعبَّر به عن كلِّ ما أفهمَ المقصود[4]، فيشمَلُ ما

النُّـطـقُ أخَـصُّ من التَّكلُّم

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 386.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 240 - 241.
(3) دروزة، التَّفسير الحديث: 2/ 214 - 215.
(4) محمَّد محيي الدّين عبد الحميد، التُّحفة السَّنيَّة بشرح الآجرّوميَّة، ص: 33.

كان لفظًا وما لم يكُن، كالخَطِّ والكتابةِ والإشارةِ وما يُفْهَمُ مِن حالِ الشَّيء، وهو المسمّى: لسانَ الحالِ[1].

والنُّطق خاصٌّ بالصَّوت الذي له مَعْنًى[2]، يقال: نَطَقَ يَنْطِقُ نُطقًا ومَنْطِقًا ونُطوقًا، أي: تَكَلَّمَ بصَوتٍ وحُروفٍ تُعْرَفُ بها المَعاني[3].

وأوثِر لفظ (النُّطق) دون (التَّكلُّم) في قول الله ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ لأنَّ لسانَ حالِهم يتكلَّم، ولكنَّهم لا يستطيعون النُّطقَ ببِنتِ شَفَةٍ[4]، والنُّطق: إدارةُ اللِّسانِ في الفَمِ بالكلام[5]، وهو لفظٌ مشتركٌ بين القوَّة الإنسانيَّة التي يكون بها الكلامُ وبين الكلامِ المبرَز بالصَّوت[6]، فكأنَّ هذه القوَّة قد نُزِعَت منهم.

الإذْنُ والإباحَةُ:

الإباحةُ قد لا تَسبقها رغبةٌ في الشَّيءِ الذي يُباح، والإذنُ تَسبقه رغبةٌ في فِعلِ الشَّيء، كمَن يَرغب في دُخولِ بيتٍ، فيُؤذَن له؛ ولذا أوثِر لفظُ (الإذن) دون (الإباحة)، في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، فإنَّهم يَرْغَبونَ في النُّطقِ، ولكنَّهم لا يَقْدِرونَ على شيءٍ إلّا بإذْنِ الله ﷻ[7].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 434، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/ 184، والسُّيوطيُّ، همع الهوامع: 1/ 48، ومحمَّد محيي الدّين عبد الحميد، التُّحفة السَّنيَّة بشرح الآجرّوميَّة، ص: 33.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نطق).

(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (نطق).

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 179.

(5) العسكريُّ والجزائري، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 541 - 542، وأبو القاسم الكرمانيُّ، لباب التَّفاسير، ص: 2650.

(6) الرّاغب، المفردات: (نطق).

(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 180.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"